بطابع الجهاد الصحيح

كان زين العابدين بن الحسين يقول « كنا نعلم مغازى رسول الله كما نعلم السور من القرآن » ، وكان إسماعيل بن محمد ابن سعد بن أبي وقاص يقول « كان أبي يعلمنا المغازى والسرايا ويقول يابنى إنها شرف آبائكم . فلا تضيعوا ذكراها »

وفى «جهاد النبى » .. حقا . أغلى ما يتزود به الجيل المؤمن ليتخذ من حقائق التاريخ مقياسا متينا لكل دعوة وغزوة ، تنحل إزاءها حرب البطش والعدوان فى القديم والوسيط والحديث على السواء.. وبالتربية الجهادية تسمو النفوس ، وتعلو الرءوس ، وتنتظم الخطى ، وتتسق الخطط ، ويستبشر الشهداء فى مضاجعهم بالذين لم يلحقوا بهم .. فنظفر بنصر من الله وفتح قريب

محمد محمود زيتونه

بمناسبة العدد الألفى للرسالة

الرسالة فى حياة الأدب

للأستاذ حامد حفنى داود

فى أوائل القرن التاسع عشر تخلصت مصر من نير العصرين المملوكى والتركى، وانسلخت من حياة قاسية انحط فيها الأدب إلى الدرك الأسفل ، واستقبلت عهدا جديدا فى تاريخها أسس دعائمه محمد على الكبير

وزخر العهد الجديد بالإصلاحات الكثيرة التى تناولت مرافق الحياة فى مصر ، وأخذ ركب الحياة يمضى فى ثوبه الجديد . ولكن الحياة الأدبية فى ذلك الوقت لم تنل حظا كبيرا . فعلى الرغم من الإصلاحات العلمية وعلى الرغم من التعليم المدنى الذى بعثه محمد على فى فجر النهضة المصرية فإن الأدب المصرى كان يعانى لونا من التفكك وضربا من الجمود

وقد شاهد العهد الجديد تغييرا كاملا فى الحياتين السياسية والاجتماعية، ولكن الشجرة الأدبية لم تؤت أكلها أو ترسل ثمارها بالسرعة التى كنا ننتظرها، لأن سياسة التعليم فى ذلك الوقت وبالتالى حياة الأدب لم تكن جميعها منبعثة من منبعها الطبيعى، وإنما كانت إصلاحات عامة يصدرها الحكام وحدهم، ويحبس لها العلماء والأدباء ليسيروا بها سيرا مدرسيا بحتا لا يتجاوز جدران المدرسة أو يعدو قوانين التعليم العام . أما الأدباء الطبوعون والشعراء الموهوبون الذين يستطيعون أن يعبروا عن ميولهم وميول الشعب ويرسمون حياتهم وحياة الشعب؟ والذين كان فى مكنتهم أن يضعوا لبنة متينة تمثل مرحلة من مراحل الحياة الأدبية فى ذلك الوقت — فلم يفتح الباب أمامهم ولم يعطوا الحرية الكافية ليصوروا الأدب المصرى الرفيع كما ينبغى

* * *

وما كاد عقرب الزمن يطوى وراءه نصف قرن بعد محمد على حتى اشتد الفارق بين الأدب الشعبى والأدب المدرسى . ثم أخذ الزمن يمضى وأخذت الأحداث تتقلب ، وعاشت المدرسة فى بيئة وعاش المجتمع فى بيئة أخرى وازدادت الألسنة تبلبلا حين جمعت الثقافات الأدبية فى موطن واحد هو المدرسة ، استعصت على الحياة وامتنعت عن التفاعل بها

وتقدم الزمن ووقعت « الثورة العرابية » وتدخلت أصابع الأجنبى لكبحها وقتلها . وشاء الله لها أن تموت وتقبر فى مهدها، ولكن جذورها النفسية وآثارها الأدبية لم تمت ، فقد نبهت العقول الراكدة والنفوس النائمة إلى الواجب الوطنى ، فى الوقت الذى شعرت الأمة بضرورة التقريب بين الطبقات ، وخشت على محو الفوارق الاجتماعيه التى لا يقرها الإسلام ولا تعترف بها المبادئ الإنسانية .

وقد كان لهذا الشعور العميق الذى شاع بين طبقات الشعب وعم أرجاء البلاد بعض الأثر فى حياة الأدب . وكثيرا ما تكون الأحداث السياسية والثورات الوطنية مادة خصبة للبناء الأدبى ووقودا صالحا يشعل جذوة الحياة الأدبية بعد خمودها الطويل . وقد ساعد على ذلك أن لاقت الثورة الأولى نفوسا صافية وقلوبا واعية وأرواحا أبية وثابة تتأثر بما حولها وتعبر عن آلام الشعب وآماله . ثم انعكس شعاع هذه الثورة فى الحياة الأدبية : انعكس فى الخطابة فكان عبد الله النديم وأترابه ، وفى دولة الشعر فكان البارودى وكانت مدرسته وهى أولى مدارس الشعر

المعترف بها فى عصر النهضة ، ونال الحياة الفكرية مانال الخطابة والشعر من تجديد، وظهر ذلك واضحا فى شخصية الشيخ محمد عبده وأستاذه الشريف جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق ومجدد القرن الرابع عشر

* * *

ولم يكد يمضى الزمن بالثورة العرابية ولم تكد تأخذ مكانها فى سجل التاريخ حتى تمخضت عن مولود هو « ثورة ١٩١٩ » وقد أعادت هذه الثورة إلى الحياة المصرية سالف رونقها وأجرت فى شرايينها دماء الثورة الأولى والدعوة إلى المثل . وهكذا تقدمت الحياة المصرية خطوة إلى الأمام بعد الثورة الثانية . وارتقى التعليم المدنى تبعا لذلك فغادر ميدان المدرسة إلى ميدان أرقى وأجل هو الجامعة المصرية القديمة . وقد كان الغرض الأول من إنشائها تثبيت مكانة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية

ومنذ ربع قرن تطورت الجامعة المصرية القديمة إلى وضعها الجديد الذى بدأت خطوطه الأولى فى جامعة فؤاد الأول . ولكن الحياة الأدبية الرفيعة التى كانت تدب فى مصر فى ذلك الوقت ظلت محتنقة بين جدران الجامعة. أما المجتمع الخارجى الذى كان يتمثل فى النوادى والمجالس الأدبية — فلم يكن مقياسا صحيحا يمثل ما اعتور الأدب من تطور فى ذلك الوقت ، وإن كان فى ذاته يعتبر امتدادا طبيعيا لنوع من الحياة الأدبية الشعبية فى تاريخ مصر . ولعلك تعجب أن يضطرب هذا التطور بين الجامعة والمجتمع وأن تختلف البيئتان فى رسم هذا الاتجاه وتحديد ذلك النمط !!

كان ذلك منذ ربع قرن حين كانت الجامعة وكان الجامعيون يعيشون بين جدران الجامعة ويدرسون الأدب للجامعة ولأنفسهم قبل أن يدرسوه لخدمة المجتمع وأهله أو قبل أن يتحملوا عبء هذه الرسالة ويكلفوا أنفسهم مشقة عرضها على المجتمع فى صورتها الجديدة . وهى الصورة التى كانت تساير الزمن وتساير الحياة الجديدة الناهضة فى العالم كله

أعنى : كانت هناك حلقة مفقودة بين « الأدب الرفيع » فى الجامعة و « الأدب الشعبى » فى المجتمع . واستمرت هذه الفجوة السحيقة والهوة الضخمة بين الأدبين ردحا من الزمن عانى خلالها الأدب المصرى لونا من التفكك وضربا من الجمود الذى ذكرناه

ويوم تفقد الحلقة بين الأدب الرفيع وأدب الشعب تقع الطامة الكبرى على المجتمع وعلى القومية وعلى الدين وتصبح الحياة ضربا من الترهات والتفكك والحواجز السخيفة التى لا تحتمل ، وتصير الأمة أشبه بأمتين متباينتين متنافرتين فى أمة واحدة

وقد كان من رحمة الله على مصر أن هذه الفترة لم تطل حين قيض لها بالأمس جماعة من الأدباء حملوا لواء الحياة الأدبية . وتقدم هؤلاء صفوف الأدب وأخذوا يقربون بين الأدب الرفيع وأدب الشعب ويرسمون من المثالين مثالا واحدا صادقا يصور التطور الصحيح ويتجانس مع الزمان والمكان

وقد كان الأستاذ الزيات فى مقدمة هؤلاء النفر الذين قربوا الخطى ووحدوا الصفوف ووسعوا الميدان الأدبى وأفسحوا المجال الصحفى للمطبوعين المقبورين والموهوبين المنسيين . كما كان فى رسالته عون الشباب المتوثب المكافح المتاضل العامل على رفع القواعد من المدرسة الأدبية المصرية . وهو من هؤلاء النفر الذين يقدرون الشئ لذاته . فليس أكرم الأدباء فى نظره أشهرهم ولا أسنهم ولا أغناهم ولا أعظمهم جاها وشأنا ، وليس أتفههم عنده أخلهم ولا أصغرهم ولا أفقرهم ولا أحقرهم مكانة ورتبة . إنما أكرمهم عنده آدبهم وأعلمهم . وهكذا لم يشأ الأستاذ الزيات أن يتخذ من المقاييس اللا إرادية مقياسا يقيس به الأدباء والعلماء . لقد أبى الأستاذ فى رسالته إلا أن يكون الناقد الحصيف الذى يحسن الاختيار ويصل إلى الأعماق فى النقد ، ذلك لأنه يأبى إلا أن يجعل من الإرادة والإرادة وحدها مقياسه النزيه . أما هذه المقاييس التى تقوم على صفات عرضية لاحظ للانسان فيها ولا قدرة له على توجيهها فهى مقاييس زائفة تافهة فى نظره لأنها لا تمثل الحقيقة المجردة ولا تستقيم مع النقد النزيه ، ويماثل ذلك قوله تعالى فى محكم كتابه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالتقوى وأمثالها جانب إرادى فى حياة الإنسان . ولذلك صح أن تعتبر مقياساً فى التفاضل الأخروى .

وفى ضوء هذا النهج السليم قرب الزيات بين الحياتين ووحد بين الأدبين حين جعل من الرسالة منبراً عاما يعتليه الأدباء لذواتهم وشخصياتهم لا لمناصبهم ومراتبهم ، يعتلونه على اختلاف مشاربهم وأهوائهم وميولهم ونزعاتهم يعرضون ما لديهم من بضاعة فى

الأدب والعلم والفن . ثم يطرحون ذلك كله أمام القراء الذين أقبلوا على الرسالة يتدافعون ويتزاحمون حين أدهشهم جلالها وأعجبهم اتساع صدرها وتمثيلها لجوانب الحياة الأدبية كلها . والقراء هم الحكومة النزيهة بين الرسالة وكتابها . فهم وحدهم الذين يستطيعون بإخلاص أن يقولوا للمصيب أصبت وللمخطئ أخطأت . ثم هم يسجلون ذلك فى بريدهم الأدبى . وهم وحدهم يستطيعون أن يعلنوا ويثبتوا البقاء للأصلح « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

وهكذا ظلت « الرسالة والرواية » عشرين عاما منذ خرجت إلى الناس تحمل عددها الأول وهى تؤدى فى صدق وأمانة رسالة الحرية الكاملة فى الأدب العربى المصرى الحديث ولا تزال تؤدى هذه الرسالة إلى اليوم وستؤديها ما شاء الله لها أن تبقى . وهى فى ذلك كله تعرض على اللأ الكتاب الأحرار المخلصين للحقائق المجردة ، وترسم أمام الناس صورا صادقة لتطور المقالة الأدبية والشعر الحديث والقصة الحديثة . وهى إلى جانب هذا وذاك تعتبر سجلا لطيفا يصور التاريخ الأدبى المصرى وما يعتريه من نماء وتطور أسبوعا فأسبوعا . ولولا عنصر الصدق الذى امتازت به فى أداء رسالة الأدب لعصفت بها يد الزمان ولحطمتها معاطب الحدثان .

نعم إنها ظلت تتاضل مع الزمن وتصور الحياة الأدبية المصرية فى غير تكلف ولا تعسف . كما استطاعت بفضل عناصر : الصدق والدقة والإحاطة أن تصبح مرآة عامة تنعكس عليها آداب مصر والعراق وآداب الأقطار الشقيقة ، وأن تستجيب لذلك كله لما وجدت من القراء فى الأقطار الشقيقة من يمهد لها الطريق ويعينها على أداء رسالة العربية وآدابها . فالرسالة — فى نظر المنهج العلمى الحديث — هى الأدب الحى المعاصر .. والأدب الحى المعاصر هو الرسالة :

* * *

واليوم شاءت الأقدار أن تحتفل الرسالة بعددها الألفى ، وأن تختتم به عهدا قديما فى حياة مصر ، وأن تفتتح به عهدا جديدا حبيبا إلى النفوس ، هو عهد الحرية والفضيلة ، عهد العدالة التى حطمت صخرة الطغيان وخلصت مصر من ربقة الظلم والإثم والبهتان . ولعل من أجل الصدف وأحلاها فى حياة الأقدار أن تفتتح الرسالة الألف الثانية من أعدادها فى مفتتح هذا العهد الجديد . ذلك العهد الذى لا تزال الأعناق تشرئب إليه احتراما وتعظيما وتحملق العيون فيه إكبارا وإجلالا وتكريما ، وقد خشعت له أصوات الردة وارتفعت فيه صيحات الحق ، بعد أن ظل الناس زمنا يجأرون بالشكوى فلا يلتفت إليهم ويهيبون بالإصلاح فتداس حقوقهم وتحطم آمالهم

ما أجمل أن تفتتح الرسالة ألفها الثانى فى ذلك العهد الجديد وما أحراها أن تسهم فيه بنصيبها فى الإصلاح والتطهير والتجديد ، وأن تكتب عن ذلك كله وقد حمل صاحبها لواء الكتابة الإنشائية عشرين عاما كاملة . فما كان الأدب الحر فى أى عصر إلا سلاحا ماضيا يدافع عن الأبطال المجاهدين وسيفا مصلتا فوق رقاب الطغاة المتمردين . ألا إن حاجة الأمم إلى الكتاب وعذبات الأقلام ليس بأقل من حاجتها إلى القادة والقواد العظام .

حامد حفنى داود